



تحولت الجغرافيا السورية إلى ساحة اشتباك مفتوحة، ليس بين الأطراف المحلية والإقليمية والدولية المتحاربة فحسب، بل أيضاً بين الحلفاء أنفسهم، بحيث أصبح من الصعب تحديد خطوط التماس السياسي والعسكري.

بين أطراف الأزمة الإقليميين والدوليين تباينات كبيرة، لكن بينها تقاطعات سياسية، وبين حلفاء المعارضة تفاهمات واسعة، لكن بينهم خلافات عميقة أيضاً، ويمكن القول بكثير من الثقة إن هذه الخلافات ألحقت أضراراً فادحة بالثورة السورية أكثر بكثير مما ألحقه بها أعداؤها.

هذا الواقع أفرزته حدة التباينات بين مختلف الأطراف، إن على صعيد الأهداف القريبة والبعيدة، أو على صعيد الآليات والوسائل الكفيلة بتحقيق هذه الأهداف.

بين روسيا وأميركا:

تکاد العلاقة الأميركيّة الروسية حال الأزمة السورية تثير السخرية، فكلتاها تصدران خطاباً سياسياً متناقضان، في وقت تمارسان فيه أسلوبهما متناغماً، لا يمكن وصفه إلا بأنه تبادل للأدوار في سوريا.

واشنطن تقدم خطاباً ملتبساً ومتذبذباً، فلا هي مع بقاء الأسد في الحكم، ولا هي مع تدخل عسكري يهدف إلى إسقاطه، ولا هي مع دعم المعارضة المسلحة بالأسلحة النوعية، ولا هي مع القضاء عليها.

موسكو -في المقابل- تعلن عدم تمسكها بشخص الأسد وأنها تدعم الدولة، لكنها في الواقع تقدم الدعم السياسي والعسكري اللازم للنظام وشخص الأسد، وتؤكد أن هدفها محاربة الإرهاب لا محاربة "الجيش الحر"، في وقت تضرب فيه بقوة فصائل تابعة له.

تلاقت المصالح الروسية الأميركيّة في عدم إسقاط النظام بالقوة العسكريّة، سواءً أكان من الداخل أم من الخارج. فعلى المستوى الأميركيّي، هناك خشية من انهيار الدولة ومؤسساتها كما جرى في العراق بُعيد الغزو الأميركيّ، وإلى حد ما في ليبيا، الأمر الذي قد يؤدي إلى حرب طائفية وربما إثنية، سرعان ما تتجاوز الحدود الجغرافية السوريّة. وعلى المستوى الروسي، هناك خشية من سقوط أهم حليف لها في المنطقة، وخسارة الورقة الإستراتيجيّة الكبرى خارج حدودها الإقليميّة.

كما تلاقت مصالح العاصمتين في إعطاء الأولويّة لمواجهة "الإرهاب"، كل لأسبابه، ولذلك يمكن القول إن التدخل العسكري الروسي في سوريا جاء بموافقة الأميركيّة، أو على الأقل نتيجة غض واسطنطن طرفها عن هذا التدخل، فلا مانع لدى الولايات المتحدة من تدخل عسكري روسي يستنزف قدرتها ويضرب في الوقت نفسه داعش (تنظيم الدولة الإسلاميّة) وبعض حلفاء المعارضة المسلّحة كـ"جبهة النصرة" المدرجة على قائمة الإرهاب الأميركيّة، وأحرار الشام، وغيرهما من القوى التي تشك الإداره الأميركيّة في توجهاتها المستقبليّة.

وعند مسألة محاربة الإرهاب يحدث التقاطع الأميركيّ الروسي مجدداً: موسكو ترى بقاء النظام السوري مسألة ضروريّة لنجاح مهمّة محاربة الإرهاب، بينما تعتقد واسطنطن أن بقاء النظام لا يسهم في إنجاح محاربة الإرهاب، لكن إسقاطه يساعد على انتشاره، ولذلك ترفض إدارة أوباما محاولات الروس إعادة تأهيل النظام السوري وـ"شرعنة" وجوده من بوابة محاربة الإرهاب.

لا يعني ذلك عدم وجود خلافات بين الجانبين؛ الخلاف الروسي الأميركيّ الحقيقي متعلق بالرؤى الإستراتيجيّة الكبرى لموقع سوريا الجيوإستراتيجي، وطبيعة الأساليب التي يجب اتباعها لإنهاء الأزمة السوريّة.

تقوم المقاربة الأميركيّة على إطالة أمد الأزمة من أجل القضاء نهائياً على موقع سوريا في معادلات المنطقة، خاصة تلك المتعلقة بإسرائيل، فاستمرار المعارك فرصة تاريخية للولايات المتحدة وإسرائيل لن تتكرر، إذ تضعف مكانة سورياإقليميّة، وتستنزف إيران وـ"حزب الله"، وتقلص التدين الإسلامي المتطرف (السلافية الجهادية، المليشيا الشيعيّة)، الأمر الذي يقلص فرص تورط إسرائيل بشكل مباشر، مما يمكنها من تحقيق مصالحها بصمت، دون دفع ثمن سياسية وأمنية كبيرة، وفق ما صرّح به أحد الدبلوماسيين الإسرائيليّين.

روسيا -في المقابل- تبدو مستفيدة من هذا الوضع، فسوريا ضعيفة تحتاج إلى روسيا أكثر، وسوريا ضعيفة تعني تواجدها سياسياً وعسكرياً أكثر وأوسع، وتجربة العقد الماضي واضحة، حيث تراجعت العلاقة بين البلدين لصالح أطراف غربيّة.

لكن بين البلدين خلافات على الصيغة النهائيّة للأزمة، فهي حين تحاول موسكو فرض منطق القوة على طبيعة التسوية النهائيّة من خلال إصلاحات سياسية تحت سقف الأسد، على أن يترك مصيره للشعب السوري نفسه، ترفض واسطنطن منطق القوة لصالح قوة المنطق.

بعباره أخرى، تقوم المقاربة الأميركيّة على الفصل الحاد بين الميدان والسياسة، أو نتائج المعارك العسكريّة ونتائج مفاوضات السلام، وهنا تبدو مقوله كلاوزفيتز "إن الحرب امتداد للسياسة وإن بوسائل أخرى" مقوله غير تاريخية بالنسبة لواشنطن في الحالة السوريّة، فهدف استمرار المعارك يتجاوز مسألة بقاء الأسد أو خروجه من السلطة، فالأسد لا يمكن أن يكون جزءاً من مستقبل سوريا، على ما في هذه العبارة من غموض.

حلفاء المعارضة:

تشكل الولايات المتحدة وال سعودية وتركيا وقطر نواة الحلف الداعم للمعارضة السورية، لكن اختلاف موقع هذه الدول جغرافيًا وتبادرها ومصالحها جعلتها تشارك تحت عنوان عام معاداة الأسد ونظامه ودعم المعارضة، وتخالف بشأن كيفية تحقيق هذا الهدف.

وقد بيّنت الأزمة السورية أن الخلافات التكتيكية قد أثرت سلباً على الهدف الكبير، وبما التباين واضحًا وحالاً أحياناً بين هذه الدول: العواصم الإقليمية الثلاث دفعت قديماً في تحقيق حل عسكري لإسقاط النظام، لكنها اصطدمت بالموقف الأميركي الرافض لذلك.

أثر هذا الخلاف على طبيعة التحالفات الداخلية في سوريا، فكل دولة تدعم بعض الأطراف الداخلية في سوريا، وقد شكلت مجمل هذه القوى حالة خوف بالنسبة لواشنطن بسبب خشيتها من التوجهات الجهادية السلفية لبعض هذه الفصائل، كما خشيت في الوقت عينه أن يتحول "الجيش الحر" إلى قوة يأخذ حسابها بحيث يتحول إلى نواة جيش وطني من شأنه أن يتحول إلى نواة جذب لقوى الأخرى، وهذا ما لا تريده الإدارة الأميركية.

لم تقتصر التباينات على العلاقة مع الولايات المتحدة، بل شملت العواصم الإقليمية الثلاث في ما بينها، وكان الإخوان المسلمين هم عنوان الخلاف، وانعكس هذا الأمر سلباً على المستويين السياسي ممثلاً في أداء الائتلاف ومكوناته، وعلى المستوى الميداني في طبيعة العلاقة التي ربطت الفصائل المسلحة المدعومة من العواصم الإقليمية.

لكن التفاهم بين العواصم الثلاث (تركيا وال سعودية وقطر) الذي حدث بداية العام الجاري، وتوج بتشكيل "جيش الفتح" الذي استطاع السيطرة على محافظة إدلب وتغيير قواعد اللعبة لأول مرة لصالح المعارضة منذ منتصف 2013، أربع الحليف الأميركي بقدر ما أربع النظام وحلفاءه.

وجاء التدخل العسكري الروسي في المقام الأول للحد من اندفاع الفاعلين الإقليميين الداعمين للمعارضة، وليطلق حرباً بالوكالة بين أطراف النزاع، وجدت فيها واشنطن فرصة لاستنزاف الجميع، ولذلك سمحت لل سعودية وقطر وتركيا بتزويد فصائلها بالأسلحة اللازمة لمواجهة النظام وداعمييه دون أن يتم تزويدهم بأسلحة ذات نوعية عالية جداً قادرة على مجا بهة السلاح الروسي.

وأمام هذا الوضع كان لا بد لواشنطن من البحث عن حلفاء محليين معتدلين من وجهة نظرها، بعيداً عن حلفائها (الرياض، الدوحة، وأنقرة)، ووجدت الولايات المتحدة مؤخراً في التحالف الكردي العربي (قوات سوريا الديمقراطية) الصيغة المثلثة: قوى ليس هدفها محاربة الحكومة السورية، لكنها في الوقت نفسه ليست حليفة معه، هدفها محاربة "داعش" وإقامة منطقة تكون معقلًا لها بعيداً عن الصراعات الأخرى.

ومن شأن هذه القوى أن تحد من توسيع الفصائل الإسلامية ذات التوجهات السلفية والجهادية مثل "جبهة النصرة" وأحرار الشام" وغيرها، كما هي ورقة يمكن اللعب بها لمواجهة التمويلات المنفعة لتركيا في سوريا.

تناقضات المشهد الداخلي:

أربع قوى داخلية في سوريا احتزلت الصراع الإقليمي الدولي (النظام وحلفاؤه، ومعارضة مسلحة يغلب عليها الطابع الإسلامي، و"داعش"، والقوات الكردية)، لكن لكل قوى أولوياتها:

- النظام هدفه الأول القضاء على الفصائل المعارضة له في محاولة لجعل الصراع بينه وبين الإرهاب ممثلاً في "داعش"، ولذلك لم تجر معارك حقيقة بينه وبين تنظيم الدولة سوى تلك المتعلقة بالوجود الكردي، حيث وقف إلى جانب الأكراد في

القامشلي ضد تنظيم الدولة.

- المعارضة المسلحة لديها هدفان رئيسيان: النظام و"داعش"، وتفترق مع الأكراد حول الهدف الأول، وتتلاقى معهم حول الهدف الثاني.
- الأكراد لديهم هدف رئيسي يتمثل في تحقيق مصالحهم الذاتية، ولذلك فإن عدوهم الأول هو تنظيم الدولة، وحليفهم الأول هو النظام.
- أما تنظيم الدولة، فله عدوان رئيسيان: الوحدات الكردية التي زاحمه على الأرض، والمعارضة المسلحة ذات الشق الإسلامي، في حين يبقى النظام عدواً نظرياً.

الجزيرة

المصادر: